

## معوقات في مواجهة النظرية الأدبية الإسلامية

### الحلقة الثانية: الإسلام والمذاهب الغربية<sup>(١)</sup>

د/ علي يوسف اليعقوبي

لَقَدْ اخْتَلَفَتِ الْوَسَائِلُ، وَتَنَوَّعَتِ الْأَسَالِيبُ الَّتِي حَارَبَ الْغَرْبُ بِهَا هَذَا الدِّينَ، مَا بَيْنَ حُرُوبٍ مُدْمِرَةٍ، وَمُؤَامَرَاتٍ لَمْ تَتَوَقَّفْ يَوْمًا وَاحِدًا مِنْذُ بَعَثَتَهُ (ﷺ) وَحَتَّى يَوْمِنَا هَذَا، ثُمَّ تَفَتَّقَتْ عَقْلِيَّاتُهُمْ عَمَّا يُعْرَفُ بِالْغَزْوِ الْفِكْرِيِّ، وَالتَّدْمِيرِ الْأَخْلَاقِيِّ، وَزَعَزَعَتِ النَّاسَ فِي ثَوَابِتِهِمْ، وَمُعْتَقَدَاتِهِمُ الدِّينِيَّةَ، وَالْخُلُقِيَّةَ، وَبَثَّ رُوحَ الْيَأْسِ وَالْقَنُوطِ فِي ضَمَائِرِهِمْ، وَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ فَلَاسَفَاتٍ وَنَظَرِيَّاتٍ وَمَذَاهِبٍ: أَخْلَاقِيَّةٍ، وَاقْتِصَادِيَّةٍ، وَأَدَبِيَّةٍ<sup>(٢)</sup>.

وَلِأَنَّهُ لِمَنْ الْمُفِيدُ أَنْ نَعْرِفَ أَنَّ هَذِهِ النِّظَرِيَّاتِ، وَالْفَلَاسَفَاتِ، قَدْ جَاءَتْ تَعْبِيرًا عَنْ أَحْوَالٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ، وَنَفْسِيَّةٍ خَاصَّةٍ، مَرَّتْ بِهَا الْمُجْتَمَعَاتُ الْأُورُوبِيَّةُ، يَقُولُ نِزَارُ قَبَانِي فِي هَذَا الشَّأْنِ "وَفِي رَأْيِي أَنَّ أَرْمَةَ الْعَبَثِ، وَالْعَدَمِ، وَاللَّاجِدَوِي، هِيَ أَرْمَةُ نَفْسِيَّةٍ مُسْتَوْدَدَةٍ، لَهَا مَا يُفَسِّرُهَا فِي الْحَضَارَةِ الْأُورُوبِيَّةِ الْمُتَعَبَّةِ، أَمَّا نَحْنُ فَقَدْ نَقَلْنَاهَا بِدُونِ تَحْفُظٍ، وَدُونِ أَنْ يَكُونَ فِي حَيَاتِنَا مَا يُبْرِرُهَا، فَالْقَرْفُ الَّذِي يَطْعَى عَلَى آثَارِنَا الْأَدَبِيَّةِ، لَيْسَ (قَرْفًا عَرَبِيًّا)، وَإِنَّمَا هُوَ قَرْفٌ مِنْ صُنْعِ فَرَنْسَا.."<sup>(٣)</sup>.

وَلِهَذَا.. يَجِبُ عَلَيْنَا "أَنْ نُدَقِّقَ النَّظَرَ فِي كَيْفِيَّةِ نَشْأَةِ الْمَذَاهِبِ الْأَدَبِيَّةِ عِنْدَ الْغَرْبِيِّينَ، لِنَتَّبِعَ إِلَى أَيِّ حَدٍّ عَمَلَتْ إِرَادَةُ الْأُدَبَاءِ، وَالنُّقَادِ، فِي نَشْأَةِ تِلْكَ الْمَذَاهِبِ، وَإِلَى أَيِّ حَدٍّ سَبَقَ إِلَيْهَا الْأَدَبُ بِاعْتِبَارِهِ وَسِيلَةً لِلتَّعْبِيرِ عَنْ حَالَاتٍ نَفْسِيَّةٍ، أَوْ أَوْضَاعٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ، تَتَغَيَّرُ، فَيَتَغَيَّرُ تَبَعًا لَهَا الْأَدَبُ"<sup>(٤)</sup>، كَمَا يَتَعَيَّنُ عَلَيْنَا أَنْ نَعِيَ جَيِّدًا، أَنَّهُ وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ "قَوَانِينَ أَدَبِ الْغَرْبِ، وَمَدَارِسُهُ، لَا تَصْلُحُ لِلْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ، إِلَّا أَنْ هَذَا لَا يَعْنِي أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ الاسْتِفَادَةَ مِنْ نَتَائِجِ الْعُلُومِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْجَدِيدَةِ فِي دِرَاسَةِ الْأَدَبِ، وَتَقْدِيرِهِ..، وَأَنْ نَكُونَ حَذَرِينَ فِي اخْتِيَارِ مَا هُوَ عَامٌّ مِنْهَا، وَيَصْلُحُ لَنَا، وَمَا هُوَ خَاصٌّ فَلَا يُمَكِّنُ قَبُولَهُ، وَالْقُدْرَةُ عَلَى هَذَا الْاخْتِيَارِ تَقُومُ عَلَى الْمَعْرِفَةِ، فَعِنْدَمَا نَتِمَكَّنُ مِنْ مَعْرِفَةِ مَا نُرِيدُ، وَطَبِيعَةِ الْأُمُورِ الَّتِي نُرِيدُ؛ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَخْتَارَ بِشَكْلِ صَحِيحٍ.."<sup>(٥)</sup>، فَهَذَا التَّلَاقُحُ الْفِكْرِيُّ، وَالتَّمَحْيِصُ، وَالتَّدْقِيقُ، مَطْلَبٌ شَرْعِيٌّ، حَرَصَ الْإِسْلَامُ عَلَى تَطْبِيقِهِ فِي كُلِّ زَمَانٍ، وَمَكَانٍ، فَالْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ، وَهُوَ - أَيْضًا - كَيْسٌ فَطِنٌ، ذَلِكَ أَنَّ نَاعِشُ فِي عَالَمٍ مِنَ الْمُتَغَيَّرَاتِ، الَّتِي لَا يَحْكُمُهَا ثَوَابِتُ دِينٍ، أَوْ قِيمٍ، أَوْ أَخْلَاقٍ، وَلِهَذَا.. يَجِبُ أَنْ نَكُونَ - نَحْنُ الْمُسْلِمِينَ - عَلَى قَدَرٍ كَبِيرٍ مِنَ الْفِطْنَةِ، وَالذِّكَاةِ، وَالْحَذَرِ، وَالْوَعْيِ، لِمَا يَدُورُ حَوْلَنَا، وَلِكِي "تُدْرِكَ إِلَى أَيِّ حَدٍّ نَسْتَطِيعُ أَنْ نُفِيدَ بِإِرَادَتِنَا مِنْ تِلْكَ الْمَذَاهِبِ، وَإِلَى أَيِّ حَدٍّ لَا نَسْتَطِيعُ تِلْكَ الْإِفَادَةَ، مَا دَامَتْ ظُرُوفُنَا، وَحَاجَاتُنَا النَّفْسِيَّةُ، وَالرُّوحِيَّةُ تَخْتَلِفُ عَنِ الظُّرُوفِ، وَالْحَاجَاتِ الَّتِي دَفَعَتْ إِلَى ظُهُورِ هَذَا الْمَذْهَبِ،

(١) ينظر في هذا / أ. ل. شاتليه - الغارة على العالم الإسلامي - ترجمة وتلخيص: محب الدين الخطيب، مساعد اليافي، ص ١٣-٢٣.

(٢) نزار قباني - الشعر قنديل أخضر - ط ١، ص ٥٠.

(٣) د/ محمد مندور - الأدب ومذاهبه - ص ٤٣.

(٤) د. حسين الصديق - مقدمة في نظرية الأدب العربي الإسلامي - ص ١٥٤.

أَوْ ذَاكَ عِنْدَ الْغَرِيبِينَ" (٥)، وَفِي الْحَقِيقَةِ أَنَّ الدُّكْتُورَ مَدُورَ قَدْ لَامَسَ الْجُرْحَ، حِينَمَا وَجَّهَ إِلَى ضَرُورَةِ الْحَذَرِ وَالْتَبَئِينَ، بِسَبَبِ مَا يُعَانِيهِ وَأَقْعُنَا الثَّقَافِي الْمُنْعَثَرُ مِنَ انْفِصَالٍ، وَانْفِصَامٍ، "يَجْعَلُنَا نَذْهَبُ إِلَى الْقَوْلِ: لِنَتْرِكَ النِّقْدَ الْعَالَمِي لِمُبْدِعِيهِ الْآنَ، وَنُؤَاجِهَ بِشَجَاعَةٍ، وَوَعِيٍّ، مُشْكِلَاتٍ نَقْدِيًّا، وَنَبْحَثُ لَهَا عَنْ حُلُولٍ عِلْمِيَّةٍ، تَتَّفِقُ وَاحْتِيَاجَاتِ وَأَقْعُنَا الثَّقَافِي، وَالْحَضَارِيِّ.. دُونَ أَنْ نَنْسَى أَنَّنَا مُقْلِدُونَ، وَنَقْلَةٌ، وَلَسْنَا مُبْدِعِينَ، أَوْ مُسَاهِمِينَ، فِي حَرَكَةِ النِّقْدِ الْمَعَاصِرِ" (٦).

كَمَا أَشَارَ الدُّكْتُورُ وَلَيْدُ قَصَّابُ إِلَى مَا تُمَثِّلُهُ الْمَذَاهِبُ الْأَدَبِيَّةُ الْغَرِيبَةُ مِنْ خُطُورَةٍ عَلَى مَنْظُومَةِ الْقِيَمِ، وَالْأَخْلَاقِ الْإِسْلَامِيَّةِ، حَيْثُ أَنَّهَا "لَيْسَتْ نَشَاطًا مَعْرِفِيًّا مُحَايِدًا، وَهِيَ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ نَظَرِيَّاتٍ، وَأَفْكَارٍ، فِي الْأَدَبِ، وَاللُّغَةِ، وَالنِّقْدِ، وَقَضَايَاهَا الْمُخْتَلِفَةَ فَحَسْبُ، وَلَكِنَّهَا تُمَثِّلُ فَلَاسَفَاتٍ فِكْرِيَّةً، وَتَصَوُّرَاتٍ عَقْدِيَّةً، عَنِ الْكَوْنِ، وَالْإِنْسَانِ، وَالْحَيَاةِ، بَلْ عَنِ الْأَدْيَانِ، وَالْأُلُوهِيَّةِ فِي أَحْيَانٍ غَيْرِ قَلِيلَةٍ" (٧)، وَهَذَا مَا أَكَّدَهُ، وَيَذْهَبُ إِلَيْهِ "تِيرِي إِيْجِلْتُون"، فِي كِتَابِهِ (مُقَدِّمَةٌ فِي نَظَرِيَّةِ الْأَدَبِ)، حَيْثُ يَقُولُ: بَأَنَّ "نَظَرِيَّةَ الْأَدَبِ مُرْتَبِطَةٌ بِشَكْلٍ لَا يَنْفَصِمُ بِالْمُعْتَقَدَاتِ السِّيَاسِيَّةِ، وَالْقِيَمِ الْإِيدِيُولُوجِيَّةِ.. لِأَنَّ أَيَّ كَيَانٍ نَظَرِيٍّ مُهْتَمٍّ بِالْمَعْنَى، وَالْقِيَمَةِ، وَاللُّغَةِ، وَالشُّعُورِ، وَالْخَبْرَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، سَيَنْخَرِطُ حَتْمًا فِي مُعْتَقَدَاتٍ أَوْسَعٍ، وَأَعَمَّقَ عَنِ طَبِيعَةِ الْأَفْرَادِ، وَالْمُجْتَمَعَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ" (٨)، وَيَذْهَبُ (إِيْجِلْتُون) إِلَى عَدَمِ نَقَاءِ الْإِنْتِاجِ الْأَدَبِيِّ مِنَ الْأَهْدَافِ، أَوْ الْقِيَمِ، أَوْ الْمَبَادِي، بِحَيْثُ لَا تُوجَدُ "نَظَرِيَّةٌ أَدَبِيَّةٌ خَالِصَةٌ، تَكُونُ بَرِيئَةً.. فَمَثَلُ هَذِهِ النَّظَرِيَّةِ الْأَدَبِيَّةِ خُرَافَةٌ أَكَادِيمِيَّةٌ.. " (٩)، وَيُرَكِّزُ الدُّكْتُورُ شُكْرِي عِيَادُ عَلَى الْخَلْفِيَّةِ الْفِكْرِيَّةِ لِلْمَذَاهِبِ الْأَدَبِيَّةِ، "فَلَا يَتِمُّ مَعْنَى "الْمَذْهَبِ" كَحَرَكَةٍ أَدَبِيَّةٍ مَا، حَتَّى تَكُونَ لَهَا نَظَرَةٌ مُعَيَّنَةٌ إِلَى الْكَوْنِ، وَالْمُجْتَمَعِ.. وَلِهَذَا يَقُومُ النِّقْدُ بِوُضُوفِ مُهِمَّةٍ فِي تَكْوِينِ الْمَذْهَبِ، إِذْ إِنَّهُ يُشَارِكُ الْإِبْدَاعَ فِي تَحْدِيدِ النَّظَرَةِ، وَالْمَوْقِفِ" (١٠)، وَبِنَاءً عَلَى تِلْكَ الْمَوَاقِفِ، وَالرُّؤْيَى، فَمِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ يَكُونَ لِلْإِسْلَامِ مَوْقِفٌ، يُظْهِرُ مِنْ خِلَالِهِ نَظَرَتَهُ الْحَقِيقِيَّةَ فِي كُلِّ مَا يَجْرِي عَلَى السَّاحَةِ الْأَدَبِيَّةِ، بِكُلِّ جَلَاءٍ، وَوُضُوحٍ، وَبِلَا مُوَارَبَةٍ، أَوْ مُدَاهَنَةٍ، "فَالْإِسْلَامُ يَتَصَادَمُ مَعَ هَذِهِ الْمَذَاهِبِ لِأَنَّهَا تَسْتَبِدُّ إِلَى فَلَاسَفَاتٍ خَطِيرَةٍ جِدًّا، وَتَحْنُ الْمُسْلِمِينَ لَا تُرْفَضُ الْعَقْلُ، وَلَا تُرْفَضُ الْعَاطِفَةُ.. وَمَا تُرْفَضُهُ.. أَنْ يَكُونَ تَوْجِيهُ الْعَقْلِ، وَالْعَاطِفَةِ قَائِمًا عَلَى فَلَاسَفَةٍ مُعَيَّنَةٍ بِالصُّورَةِ الَّتِي تَأَدَّتْ بِهَا إِلَيْهِ" (١١)، وَيَتَحَدَّثُ الْأُسْتَاذُ أَنْوَرُ الْجَنْدِيُّ عَنِ الدَّورِ الْمُنَاطِلِ بِنَا كَأُمَّةٍ خَاتِمَةٍ، حَمَلَتْ خَاتَمَ الرِّسَالَةِ، وَآخِرَهَا، فَيَقُولُ: "فَإِنَّ عَلَى أُمَّتِنَا وَهِيَ تَتَطَلَّعُ إِلَى اقْتِعَادِ مَكَانِهَا، وَامْتِلَاكِ إِرَادَتِهَا،

(٥) د / محمد مندور - الأدب ومذاهبه - ص ٤٣.

(٦) د / د. سمير سعيد حجازي - النقد العربي وأوهام رواد الحداثة - ط ١ ص ٢٥٤.

ولا يعني هذا الرأي - بالطبع - الانعزال، والتفوق، بقدر ما يعني ضرورة الوعي بموقعنا الحقيقي على خارطة النقد المعاصر، وعمل مراجعة ذاتية لما تعاناه الحركة الأدبية، والنقدية العربية من حالة استلاب فكري.

(٧) د / وليد قصاب - المذاهب الأدبية الغربية.. رؤية فكرية، وفتية - ص ٢٠.

(٨) تيري إيجلتون - مقدمة في نظرية الأدب - ترجمة: أحمد حسان، ص ٢٣٢.

(٩) تيري إيجلتون - مقدمة في نظرية الأدب - ص ٢٣٢.

(١٠) د/شكري عياد - المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين - ربيع الأول ١٤١٤ هـ = ١٩٩٣ م، (سلسلة عالم المعرفة) ص ٦٢.

(١١) أنور الجندي - تميز الأدب الإسلامي وأصالته (سلسلة: على طريق الأصالة) ص ١١، ١٢.

أَنْ تَكُونَ.. عَلَى ثِقَةٍ كَامِلَةٍ بِقُدْرَةِ الْإِسْلَامِ عَلَى اسْتِرْجَاعِ مَجْدِهَا..، وَصَلَاحِيَّةِ رِسَالَتِهِ، وَخُلُودِهَا،  
وَأَنَّهَا الرُّسَالَةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي تُحَقِّقُ لِلبَشَرِيَّةِ الْأَمْنَ وَالسَّكِينَةَ، مَهْمَا دَارَ الْبَاحِثُونَ حَوْلَ الْمَنَاجِزِ،  
وَالْأَيْدِیُولُوجِیَّاتِ..، وَبَعْدَ أَنْ تَصَدَّعَتِ التَّظَرُّیَّاتُ، وَالدَّعَوَاتُ، وَأَوْفَتَ كُلُّهَا عَلَى الْغَايَةِ الَّتِي أَوْفَتَ  
إِلَيْهَا حَضَارَاتُ الْیُونَانِ، وَالرُّومَانِ، وَالْفُرسِ، وَالْفَرَاعِنَةِ مِنْ قَبْلُ<sup>(١٢)</sup>، وَمِنْ مُنْطَلَقِ الْمَسْئُولِيَّةِ الَّتِي  
كُلَّفْنَا بِهَا نَجِدُ أَنْفُسَنَا - نَحْنُ الْمُسْلِمِينَ - "أَصْحَابَ الْمَسْئُولِيَّةِ الْأُولَى لِأَنَّ نَقْدَمَ لِلنَّاسِ هَذَا الْمَنْهَجَ  
الطَّاهِرَ الْوَضِیءَ الْمَشْرِقَ، وَلَيْسَ غَيْرُنَا، فَيَجِبُ أَنْ نُنْشِئَ أَجْيَالَنَا الْجَدِيدَةَ عَلَى ذَلِكَ الْإِيْمَانِ الْوَثِیقِ..  
بِأَنَّ مَا نَقْدُمُهُ هُوَ أَشْرَفُ، وَأَنْقَى، وَأَطْهَرُ، مَا يُنْقِذُ الْحَضَارَةَ الْعَالَمِيَّةَ مِنَ الْإِنْهِيَارِ، وَيَرُدُّ الْبَشَرِيَّةَ  
كُلَّهَا إِلَى اللَّهِ (تَعَالَى)<sup>(١٣)</sup>.

---

(١٢) أنور الجندي - مسؤوليتنا إزاء أزمة البشرية المعاصرة - (على طريق الأصالة ٣٤)، ص ٣.

(١٣) السابق نفسه: ص ٣، ٤.